هو ان الوطنية تشكل اقوى راية يمكن ان تلف حولها الامة · وحاولت ـ وهي العدو الحقيقي للقومية المتحررة الديموقراطية ان تركب موجة القومية الصاعدة وان ترفع رايتها ، ولكن بشرط ان تفصم ما بين الحرية والانبعاث القومي من علاقة ، وان تحول القومية الليبرالية العقلانية ، الى قومية همجية لا عقلانية · عدوانية توسعية · لقد استغل المحافظون المشاعر القومية الملتهبة ضد القهر البونابرتي ، لدحر الثورة ، ولكنهم سرعان ما افصحوا عن نواياهم الحقيقية المعادية للقومية ولحقوق الامم في التحرر والوحدة عندما طبقوا مبادىء الشرعية ضد تطلعات القوميات المشروعة في الاستقلال والوحدة ـ خاصة في وسط وشرق اوروبا · وتكمن مأساة النصف الثاني من القرن التاسع عشر في استيلاء قوى الرجعية والمحافظة هذه على قومية ثورات سنة ١٨٤٨ وسلبها للراية القومية بعد ان جردتها من كل مضمون ديمقراطي ، وحولتها الى معاني التوسع والغزو والضم والالحاق تحقيقا لمصالحها ·

صنع المحافظون من هذه المعاني دينا صوفيا جديدا ، هو مزيج من التقاليد الهمجية القديمة والمشاعر الوطنية الملتهبة المتهوسة واللاعقلانية ، واستمدوا من تراث الفكر والفلسفة الالمانية اكثر جوانبه رجعية وتخلفا بعد ان اسقطوا منه كل ما هو ثوري وتقدمي · اسقطوا من هيجل ، هذا الفيلسوف الشامخ ، اروع ما قدمه للبشرية من مفاهيم ثورية : جدل التاريخ ، او الحركة والتطور الذي لا ينقطع من خلال الجدل في الفكر والتاريخ والواقع صوب الهدف الاسمى وهو الحرية ـ وتمسكوا بأسوأ ما يحمله فكره وتراثه من دعم للدولة البروسية الرجعية · فقد اعتبر هيجل في كتابه « فلسفة الحق » ان روح العالم افصحت عن نفسها في الماضي ، في الشرق وفي اليونان وفي روما ، اما اليوم فقد اكتمل نموها وتطورها في الامة التيوتونية والدولة البروسية ، التي هي التجسيد الاسمى لارادة الله وغايته على الارض · ولم يكن يصعب على القوى الرجعية حيثما كانت ان تستبدل هذا المفهوم الصوفي اللاعقلاني عن الامة التي تجسد كمال التطور والفكر على الارض ، وتنقله من الامة التيوتونية الى السلافية الى العبرانية حسبما تشاء لها الاهواء ·

هذا المسعى لتجسيد المثل الاعلى والروح في التاريخ ومن خلال التاريخ ، كان سمة عامة في الفكر الرومنسي كما رأينا ، ووصل به هيجل الى القمة ، ليمد الرجعية بسلاح لا يبارى عندما تلوى رقبة التاريخ ، وتثبت هذا المثال في العصور الوسطى، أو ما هو اكثر قدما وتوغلا في التاريخ·· ومن ثم تصاعدت النداءات بالتمسك بالتقاليد وبالتراث · واخذ الناس يكبون على دراسة التاريخ، لا كما كانوا يقبلون عليه في عصر النهضة والاستنارة ، ليستخرجوا منه اروع ما تكنه الروح الانسانية بل يهدف اضفاء صفات النبالة والمجد على الماضي والباسه اكاليل الغار · وقد بجل سافيني والفقهاء الالمان بشكل عام التاريخ